Converted by Tiff Combine - unregistered

شعرك ـ ذاك الذي كان في البداية كثيفاً أسود، فشهدته يتناقص ويضحي أبيض. سأقبّل يا عزيزتي شعرك، فالموت لم يغيّره. باتت جبهتك أشدّ صفاءً، وأنفك أكثر دقةً، وخدّاك غائصين، ولحمك تصلب ولم تخفضي جفينك بمعتاد نعومتك. يبقى شعرك مع ذلك، هو هو، فهبّة الريح ما انفكت تحرّكه، إنه حيّ، إنه الشعر ذاته الذي كنت في الصباح تصففينه، وترسلينه في المساء قبيل النوم. ورغم أنه الآن مربوطاً، تنامين.

وأحس أنني مغموم، والموت يعشش في روحي، كما سبق لي كثيراً أن أحسست وأنا إلى جانب أولادنا، إذ كان يلمّ بهم مرض، أو يمتنع عليهم النوم حتى مطلع الفجر، من بعد ليلةٍ مسهدةٍ، حين كنت أمكث قربهم جالساً أراقبهم حتى لحظة وصولك. إذ ذاك كنت تضعين يدك على كتفي، وتحملينني على أن أمضي فأرتاح. لن أعرف بعد اليوم قط رقّة تلك البادرة. ولقد يأتي بعد هنيهةٍ شخص ما ـ طفل أو جار ـ فيقسرني على الابتعاد عنكِ والتزام السرير. لكن كائناً من كان ذاك، فسيأتي ومعه أقوال. أمّا أنت فلا: كنت تأتين بصمتك، برقّتك الهادئة، فتفعلين ما تفعلين بحيث أنام، لكنني عندما أستيقظ، كنتِ أنتِ التي تسهرين على المريض، ذاك ما لن يعرفوه، إنه جد صميمي، إنه يستدعي قدراً من الفهم المتبادل، جد رفيع بحيث لا يكشف عنه. وأنا لن أحدّثهم عنه.

كما أنني لن أتكلم عن أمورٍ أحفظها مكتومةً، بحنانٍ عظيمٍ. فلو قصصتها عليهم لاعتبروني مجنوناً، لن أذكر لهم ما كان يعتريني من اضطرابٍ وأنا أنظر إليك مراتٍ ومراتٍ، وأنتِ تنفذين أكثر المهام تواضعاً. فعلى مدى سنوات، بل في كل يوم تقريباً، كنت تنهضين بأعباء البيت. كنت أراك، دون أيّ شيءٍ خاصّ. غير أن يوماً حلّ اكتشفت